٤٢

مؤسسة دار الحكمة للثقافة والعلوم الإسلامية

مركز مدرل للتنمية والدراسات الإسلامية

الحياة الدنيا

الشيخ زيد الظالمي

1435هـ - 2014م

الحياة الدنيا

الحياة الدنيا هي دار اختبار وابتلاء، وهي مرحلة عابرة تُمهّد للآخرة. أشار القرآن الكريم إلى زوال الدنيا وزخرفها، فقال تعالى: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ). كما أكدت روايات أهل البيت (عليهم السلام) على عدم التعلّق بها، حيث قال أمير المؤمنين (عليه السلام): الدنيا دار ممر لا دار مقر.

وفهمها الصحيح يُعين الإنسان على الاستعداد للدار الآخرة والعمل الصالح، فهي مزرعة الآخرة وفرصة لا تعوّض للتقرب إلى الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

١. (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)[١].

٢. (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)[٢].

٣. (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)[٣].

٤. (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)[٤].

٥. (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)[٥].

٦. (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)[٦].

ومعنى الدنيا في اللغة: مأخوذة من ((دنا، يدنو، فهو دانٍ)) أي قريب، وسميت الحياة الدنيا بالدنيا لدنوها وقربها، فهي أدنا بالنسبة إلى الآخرة ولذا قد دنت وتأخرت الآخرة، كما ذُكر ذلك في كتاب العين للخليل بن أحمد، والمحيط في اللغة للصاحب بن عبّاد، وفي معجم مقاييس اللغة لأبن فارس، وفي تاج العروس وفي لسان العرب وغيرها.

---

[١] - لقمان (٣٣)
[٢] - آل عمران (١٤)
[٣] - آل عمران (١١٧).
[٤] - آل عمران (١٨٥).
[٥] - الأنعام (٣٢).
[٦] - الأعراف (٣٢).

ولكن قد تأت بمعانٍ أخرى، فإنها قد تأتي بمعنى الأصغر فيقابل الأكبر، وقد تأتي بمعنى الأرذل فيقابل بالخير، وقد تأتي بمعنى الأول فقابل الآخر. وأما لفظة الحياة الدنيا فإنها قد وردت في القرآن الكريم ستون مرة وكانت في جميعها بأحد معنيين:

الأول: القرب، وكما قلنا إن القرب باعتبار أن الحياة الدنيا أقرب قياسا بالحياة الآخرة التي هي أبعد نسبيا.

الثاني: السافلة والرذيلة والتافهة، باعتبار أن الحياة الدنيا تفقد القيمة الكافية لمقومات الحياة على العكس من الحياة الآخرة فغنها تمتاز بالقيمة العالية والمتفوقة التي لا بد لكل عاقل من أن يكون له نصيب وافر منها، بل أكثر من ذلك، فقد نقول أن الحياة الدنيا هي ليست بحياة أساساً وإن كانت صورتها صورة حياة، ولكنها في الواقع هي موت تدريجي، والحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة والتي تبدأ بالموت في هذه النشأة، وقد ورد ذلك صريحاً في سورة العنكبوت في الآية (٦٤) حيث قال تعالى: ((وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)). فما الدنيا إلا دار مرور وعبور، والغرض منها الاختبار والامتحان للوصول إلى الكمال، وقد أشار الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) إلى أنها دار عبور بقوله (صلى الله عليه وآله): عن أبي عبد الله " (عليه السلام) " قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ما أنا والدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل رجل راكب مر على شجرة لها فيء فاستظل تحتها فلما أن مال الظل عنها ارتحل وذهب وتركها. ووصفها الإمام الحسن الزكي " (عليه السلام) " بدار البلاء والفتنة، فعن عبد الرحمن بن جندب، عن أبيه وغيره أن الناس أتوا الحسن بن علي بعد وفاة علي (عليهما السلام)، ليبايعوه فقال: الحمد لله على ما قضى من أمر، وخص من فضل، وعم من أمر، وجلل من عافية حمدا يتمم به علينا نعمه ونستوجب به رضوانه، إن الدنيا دار بلاء وفتنة وكل ما فيها إلى زوال، وقد نبأنا الله عنها كي ما نعتبر، فقدم إلينا بالوعيد كي لا يكون لنا حجة بعد الإنذار، فازهدوا فيما يفنى، وارغبوا فيما يبقى، وخافوا الله في السر والعلانية، إن عليا " (عليه السلام) " في المحيى

والممات والمبعث عاش بقدر ومات بأجل، وإني أبايعكم على أن تسالموا من سالمت وتحاربوا من حاربت، فبايعوه على ذلك.

وكذلك فيما ورد من كتاب أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر وأهل مصر، حيث قال " (عليه السلام) " واعلم أن الدنيا دار بلاء وفناء والآخرة دار بقاء وجزاء. فإن استطعت أن تزين ما يبقى على ما يفنى فافعل رزقنا الله بصر ما بصرنا وفهم ما فهمنا حتى لا نقصر عما أمرنا ولا نتعدى على ما نهانا عنه، فإنه لابد لك من نصيبك من الدنيا وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج. فإن عرض لك أمران أحدهما للآخرة والآخر للدنيا فابدأ بأمر الآخرة. وإن استطعت أن تعظم رغبتك في الخير وتحسن فيه نيتك فافعل، فإن الله يعطي العبد على قدر نيته إذا أحب الخير وأهله وإن لم يفعله كان إن شاء الله كمن فعله. وفي بعض الروايات تصف الدنيا بأنها سجن المؤمن وهي كثيرة ولنذكر بعضها:

١. وفي وصية النبي (صلى الله عليه وآله) إلى أبي ذر قال: يا أبا ذر، الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، وما أصبح فيها مؤمن إلا وهو حزين، وكيف لا يحزن المؤمن وقد أوعده الله أنه وارد جهنم ولم يعده أنه صادر عنها.

٢. عن عطية بن عامر الجهني، قال سمعت سلمان الفارسي (رضي الله عنه) وقد أكره على طعام، فقال: حسبي، إني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: إن أكثر الناس شبعا في الدنيا أكثرهم جوعا في الآخرة، يا سلمان، إنما الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر.

٣. وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إن الدنيا سجن المؤمن وغم المؤمن وان الدنيا جنة الكافر وروح الكافر.

٤- وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: إن الدنيا سجن المؤمن فأي سجن جاء منه خير؟

٥-قال (عليه السلام): الدنيا سجن المؤمن والصبر حصنه والجنة مأواه والدنيا جنة الكافر والقبر سجنه. والنار مأواه[٧].

٦- وقد جاء في الحديث عن آل محمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - أنهم قالوا: الدنيا سجن المؤمن، والقبر بيته، والجنة مأواه، والدنيا جنة الكافر، والقبر سجنه، والنار مأواه[٨].

٧-عن إبراهيم بن عبد الحميد، عن أبي الحسن الأول، عن أبي عبد الله " (عليه السلام) " قال: الدنيا سجن المؤمن، والقبر حصنه، والجنة مأواه، والدنيا جنة الكافر، والقبر سجنه، والنار مأواه[٩].

٨-نقل إنه ((عليه السلام)) اغتسل وخرج من داره في حلة فاخرة، وبزة طاهرة، ومحاسن سافرة، وقسمات ظاهرة، ونفخات ناشرة، ووجهه يشرق حسنا، وشكله قد كمل صورة ومعنى، والإقبال يلوح من أعطافه، ونضرة النعيم تعرف في أطرافه وقاضي القدر قد حكم أن السعادة من أوصافه، ثم ركب بغلة فارهة غير قطوف، وسار مكتنفا من حاشيته وغاشيته بصفوف، فلو شاهده عبد مناف لأرغم بمفاخرته به معاطس أنوف، وعده وآباءه وجده في إحراز خصل الفخار يوم التفاخر بألوف. فعرض له في طريقه من محاويج اليهود هم في هدم قد أنهكته العلة، وارتكبته الذلة، وأهلكته القلة، وجلده يستر عظامه وضعفه يقيد أقدامه، وضره قد ملك زمامه، وسوء حاله قد حبب إليه حمامه، وشمس الظهيرة تشوي شواه، وأخمصه يصافح ثرى ممشاه، وعذاب عر عريه قد عراه، وطول طواه قد أضعف بطنه وطواه وهو حامل جر مملوء ماء على مطاه، وحاله تعطف عليه القلوب القاسية عند مرآه. فاستوقف الحسن ((عليه السلام)) وقال: يا ابن رسول الله: أنصفني، فقال ((عليه السلام)): في أي شيء؟ فقال: جدك يقول: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) وأنت مؤمن

---

[٧] - تحف العقول - ابن شعبة الحراني - ص ٣٦٣.
[٨] - تصحيح اعتقادات الأمامية - الشيخ المفيد - ص ٩٦ – ٩٧.
[٩] - الخصال - الشيخ الصدوق - ص ١٠٨.

وأنا كافر فما أرى الدنيا إلا جنة تتنعم بها، وتستلذ بها، وما أراها إلا سجنا لي قد أهلكني ضرها، وأتلفني فقرها. فلما سمع الحسن (عليه السلام) كلامه أشرق عليه نور التأييد، واستخرج الجواب بفهمه من خزانة علمه، وأوضح لليهودي خطأ ظنه وخطل زعمه، وقال: يا شيخ لو نظرت إلى ما أعد الله لي وللمؤمنين في الدار الآخرة مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، لعلمت أني قبل انتقالي إليه في هذه الدنيا في سجن ضنك، ولو نظرت إلى ما أعد الله لك ولكل كافر في الدار الآخرة من سعير نار الجحيم، ونكال العذاب المقيم، لرأيت أنك قبل مصيرك إليه الآن في جنة واسعة، ونعمة جامعة[١٠].

٩. وفي غرر الحكمة أن الدنيا سجن المؤمن والموت تحفته والجنة مأواه.

فإننا لو دققنا النظر لوجدنا أن هناك نظرتان مختلفتان إلى الحياة الدنيا أي أن هناك نظرة تغاير لنظرة الإسلام للحياة الدنيا وقد صور القران الكريم هذه النظرة في كتابه العزيز في سورة الحديد في الآية (٢٠) حيث قال تعالى: ((اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)).

فقد صورت الآية الكريمة مراحل حياة الإنسان وهي خمسة مراحل:

الأولى: مرحلة الطفولة، والحياة تكون عادةً في هذه المرحلة تتصف وتقترن بحالة من الغفلة والجهل واللعب.

الثانية: وهي مرحلة المراهقة وقد اخذ اللهو مكان اللعب وفي هذه المرحلة غالباً ما يكون الإنسان لاهثاً وراء الوسائل والأمور التي تلهيه وتبعده عن الأعمال الجدية.

الثالثة: مرحلة الشباب والحيوية وحب الزينة.

[١٠] - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٤٣ - ص ٣٤٦ – ٣٤٧.

الرابعة والخامسة: وهما مراحل الكبر حيث يكون جل تفكيره هو العلو والتكبر على الآخرين والتفاخر عليهم والتفكير بتكثير الأموال والأولاد مما يشغله عن ذكر الله تبارك وتعالى.

ويجيب القرآن الكريم على هؤلاء بأنك يا أيها الإنسان سوف تهلك وأن هذه الدنيا لن تدوم ولن تبقى كما في قوله تعالى في سورة الكهف في الآية (٤٥) في قوله تعالى: ((وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا)) فقد شبَّه الله تعالى الحياة الدنيا في هذا المثل بماء الغيث. فإن الخصوصية البارزة لهذا الماء أنَّه يضفي طراوة ونشاطاً على الزرع والنباتات مدّة أيام، لكن هذه الطراوة والنشاط تنتهي بحلول فصل الخريف، أي فصل الموت المؤقت للنباتات، وينتهي به شوط قصير من حياة النباتات. وهذا الشوط تحذير في الحقيقة إلى الإنسان الغارق في الحياة الدنيوية بأنَّ حياته سيحلُّ فيها فصل الخريف حيث بداية الموت. ولذلك نجد أن النظرة الإسلامية للحياة الدنيا هي النظرة المثالية حيث يجب أن تكون الحياة طريق وسلوك نحو تحقيق الكمال والأخذ منها بقدر ما يحتاجه لتحقيق ذلك الكمال المنشود وهي العبودية الحقيقية التي لاجاها خلقنا كما في قوله تعالى في سورة الذاريات في الآية (٥٦): ((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ))، فالحياة الدنيا وسيلة وطريق لتحقيق الأهداف السامية ليس إلا، وأخذ شيء من الدنيا لتحقيق الأهداف لا ينافي ذلك، وإنما الذي ينافي تحقيق الأهداف السامية والكمال هو التكالب على الدنيا، بأن يجعل الدنيا اكبر همه كما ورد ذلك من طريق أهل البيت (عليهم السلام)، فقد روي عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال: من أصبح وأمسى والدنيا اكبر همه جعل الله الفقر بين عينيه وشتت أمره ولم ينل من الدنيا إلا ما قسم له، ومن أصبح وأمسى والآخرة اكبر همه جعل الله الغنى في قلبه وجمع له أمره. وهذا لا يعني أن الإنسان لا يأخذ من الدنيا شيء، بل لا بد من التوازن كما قال تعالى في سورة القصص وفي الآية (٧٧): ((وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ))، وقوله (صلى الله عليه وآله): اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لأخرتك كأنك تموت غدا. وهذا

هو الزهد فعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال ولا بتحريم الحلال بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله. وعن أبي ذر أنه سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: فقلت يا رسول الله، من أزهد الناس، قال: من لم ينس المقابر والبلى، وترك ما يفنى لما يبقى، ومن لم يعد غدا من أيامه، وعد نفسه في الموتى.

ولذا يجب أن يقترن مع الأخذ من الدنيا تذكر الموت والقبر والآخرة والحساب والعقاب والوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى، وعند ذلك نجد أن تصوف الإنسان سوف يكون مختلف تماماً عن غيره، وهذا قد ورد أيضا في وصية النبي (ص) لأبي ذر حيث قال (صلى الله عليه وآله): ((وما أصبح فيها – أي الدنيا – مؤمن إلا وهو حزين وكيف لا يحزن المؤمن وقد أوعده الله أنه وارد جهنم ولم يعده أنه صادر عنها))، فيكون الإنسان في اختبار حقيقي في هذه الدنيا فلا بدّ أن يكون مستعدا لتسليم الورقة الامتحانية وفي أي لحظة، فعن أمير المؤمنين ((عليه السلام)) يقول: ((لو كشف (لي) الغطاء ما ازددت يقينا)).

ولنعلم جيداً أن ليس للإنسان إلا ما سعى ولكل زارع ما زرع كما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): فإن زرع خيراً يحصد خيراً وإن زرع شراً يحصد شراً، وذلك هو الخسران الكبير.

فلا بد للإنسان خصوصاً نحن طلبة العلوم الدينية أن نرتقي إلى الكمال ولا بد أن نكون نبراساً يحتذى به وعلما يهتدى إليه أسوةً برسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين وأهل البيت " عليهم السلام ". فنسأل الله أن يرينا الحق حقا ويعيننا على إتباعه، والباطل باطلاً ويعيننا على اجتنابه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على أشرف خلقه أجمعين محمد وعترته الطاهرين.